



معقولية «الطعام لكل من»

بقلم محمد محمود عبدالرازق

رموزها ومع الاستمرار في القراءة تتضح الرموز وتلبس اثوابها الحقيقة التي ارادها لها المؤلف فتتفتح الوحشة ويصفو الجو رويدا رويدا ، ولقد كان لكل هذه الحيل الفنية مزية شدنا معها الى اخر المسرحية .

ليس المضمون اذن بالجديد على توفيق الحكيم ، وليس الشكل وفقا على الطوائف العبثية التي يتصدرها الان بيكت ويونسكو ... واذا كان المؤلف قد حشد كل هذه الحيل الفنية في مسرحية واحدة فذلك لان توفيق الحكيم يطور فنه باستمرار ولا يسد طريق المحاولة امامه ، وهنا يكمن سر عبقريته ، الوثابة دوما ، الا اننا في كل جديد له مهما بالغ في التجديد ، نلمس السر الدؤوب على نفس الدرب والجذور الضاربة في اعماق ماضيه لكل زهرة جديدة يقدمها لنا .. المسألة اذن مسألة تطور مستمر للاسلوب الذي يعد من اعقد المشاكل التي تواجه الفنان . قال توفيق الحكيم في زهرة العمر « ... انها دائما حالة القلق والتنقيب عن الاسلوب » .

اذا كان الامر كذلك فلماذا قامت كل هذه الضجة حول مسرحيات الحكيم الاخيرة ؟ . ومن المسئول عنها ؟؟؟

نسارع فنقول ان عبء المسؤولية يقع على الحكيم نفسه المفرم بالصجيج ليظهر بمظهر الصامت وسط العواصف والامواج المتلاطمة من حوله . وتبدأ المؤامرة بنشر خبر صغير مضمونه ان الحكيم يعد للشر مسرحية جديدة يحيطها بسياج من السرية والكنمان ، ولا يرغب في افصاح عن اتجاهها ولا حتى عن مجرد اسمها ، جاء هذا الخبر في نفس الجريدة التي نشرت المسرحية بعد حين ، ثم تابع الحكيم الضجة في مقدمته للمسرحية التي ضمنها اراده عن التعبير اللامعقولي الذي عرفه شعبنا قبل ان تعرفه اوربا بمئات بل الاف السنين سواء في النحت او التصوير او الادب ، والا فماذا نقول عن الصورة التي رسمها الاديب الشعبي بحساسه الفطري حينما « ضرب فارس من فرسان الاساطير الشعبية ضربة سيف شطر بها عدوه من منتصفه وظل العدو على فرسه ولم يفتن الى اصابته ، بل قال ساخرا للفارس الضارب «طاشت منك الضربة» فاجابه الفارس « اهتز يا ملعون » ... فلما اهتز بجسمه انشطر الجسم نصفين ووقع على الارض ... » وتكتمل الضجة بقيام الصحافة الفجة الباحثة عن الخبر المثير باشعال جنوة نارها ، فجدبت النار كثيرا من النقاد والكتاب الطيبين الا ان الحيلة لم تنطل على الفئة الواعية التي كشفت المقدمة المضللة فقال لويس عوض « اذا اردت ان تعرف في اجمال ماذا فعل توفيق الحكيم في اخر كتاب له « يا طالع الشجرة ففي مقدمة الكتاب عبارة واحدة ربما ساعدتك على ذلك هي قوله : « احب دائما ان ارى وان استخرج - كما حدث عندي فسي (شهرزاد) من فننا الشعبي اساسا فكريا حتى عندما لا يريد الفن الشعبي ان يقول شيئا بل وعلى الاخص عندما لا يريد ان يقول شيئا » . اما بقية المقدمة فلا اعتقد ان لها قيمة معينة لا من حيث هي دراسة ولا من حيث هي تهديد فهي قد تنصلل اكثر مما تفيد ، وهي تعرض لخطرات الاتجاهات في خفة وربما في سداجة ، لانها تجمع كل المدارس الجديدة كالسريالية والبقيعية والتجريدية واللامعقول وغيرها في زكبة واحدة

قلنا مرارا ان توفيق الحكيم لم ينتج بعد الى مسرح اللامعقول .. ان كان في نيته الاتجاه اليه وان مسرحية « يا طالع الشجرة » معقولة .. معقولة جدا وليست اكثر من ترديد - من حيث المضمون - لما سبق ان اعلنه من اراء وافكار عن الحاكم العادل فحاكم الحكيم يحكم حكما مطلقا بشرط الصلاح والنية الحسنة .. وهو حر فيما وراء ذلك وفيما امامه ، لكنه اذا انحاز الى القوة فهو مستبد ظالم اما اذا انحاز الى القانون فهو المستبد العادل .. وتلك هي مشكلة « السلطان الحائر » السيف .. ام القانون . فاذا ما حكم القانون رضي عنه الحكيم وصار نمطا من انماط المستبدين العادلين ، او الحكام الصالحين في نظره .

ومراعاة النظام العام .. اهم مبدأ قانوني يحرض المشرع على ابرازه ، ووضع الضمانات الكفيلة بصيانتة والمحافظة عليه من عبث العابثين ، وليس في مراعاة النظام العام قيد على حرية الحاكم، فالحرية ليس معناها التجرد من القيود « وانما الانتقال الى قيود جديدة » . هذا ان وجد النظام .. فان لم يوجد النظام العام للدولة ، او وجد في صورة رثة بالية فماذا يصنع الحكيم وحاكمه ؟؟ .. ذلك الحاكم الصالح ذو النوايا الحسنة . هل يركن الى النظام القديم العفن الذي بليت اسماله فلم تعد تكفي لستر عورته ؟؟ .. هل يحترم الفنانة والبلى واللاجدوى بحجة احترام النظام .. اي نظام . ام عليه ان يتمرد على النظام ، ليضع اللبنة الاولى في صرح نظام جديد قويم ؟ ..

هذا هو السؤال الذي اجابت عنه باسهاب مسرحية « يا طالع الشجرة » وليست الشجرة سوى النظام الجديد الذي القى على الحاكم مهمة خلقه ، الشجرة التي تطرح له كل صنوف الفاكهة في موسم واحد .. الشجرة التي توفر له خيرات الصيف والشتاء والخريف والربيع طوال العام . في كل يوم من الايام ..

ولا ندعي ان هذا هو التفسير النهائي للمسرحية ، فقد يشوبه عيب من عيوب المزاج الخاص او النظرة الضيقة للذين كثيرا ما يكتنفان الموضوعية ، ولو عرضا . وكل ما حاولنا بيانه قدر الطاقة هو ان المسرحية من المسرحيات ذات المعنى التي لا تستعصي على المنطق . ويقول الدكتور رشاد رشدي « ثلاثة اشياء اعتقد انها تدل على سداجة الناقد في نظري ان يحدد له معنى او بالاحرى ان يمنطقه » ولقد كتب الدكتور لويس عوض عدة تفسيرات لهذه المسرحية محاولا ربطها بفلسفة الحكيم وارانته عن بقاء الفكر وزوال المادة .

اما من ناحية الشكل - فليس التداخل المكاني الاحيلة مسرحية قديمة عرفها المسرح البدائي ذو الامكانيات المحدودة . اما التداخل الزمني فتجد بذوره عند توفيق نفسه في « اهل الكهف » وان كان القارئ لا يشعر امام هذا التداخل بالوحشة او الغرابة ، فرجوع ذلك لانطباع الاسطورة التي توارثها جيلا عن جيل في ذهنه ولماذا لا نقول انه اخذ عن بيراندو وعن غيره منهجهم في تداخل الزمان والمكان ، واهتزاز الخط الفاصل بين الحلم والحقيقة كتجديد لفنه ، له جذوره عنده وعند المسرح البدائي من قبله ولماذا لا نقول ان التخلخل المنطقي الذي احس به القارئ جاء نتيجة لهذا ، وللغوض الذي اكتنف المسرحية لكثرة

وتسميها الفن الحديث ، بل وتضع في نفس الزكية ايسن وبرنارد شو وبراندلو وبرخت في حين ان لكل واحد من هؤلاء غاية خاصة ومنهجها خاصا .

تنبه الحكيم الى ان للادب حراسا اشداء على المصلين رحماء بالمبدعين ، فآثر التراجع ، وكما اندفع بذكاء لماح ، اراد ان يتراجع بذكاء لماح ايضا بعد ان تحقق ما اراد من صخب ، فاعلن في تعليقه على مسرحية « الطعام لكل فم » انه ضد العبث والعشيين ، لان اللامعقول عنده ليس موقفا ضد العقل ، فكل ما يصدر عنه يصدر تحت سيطرة عقله وان « العبث » شيء « واللامعقول » شيء اخر ومسرح اللامعقول يتعلق عنده بالشكل فقط « وضع العالم المعقول في اطار اللامعقول .. هو ازالة الحائط الفاصل بين العقول واللامعقول ليعيشا معا في اسرة واحدة متحابين .. يؤثر احدهما في الاخر ويزداد الوجود بهما ويثرى » ونقول ان العبث واللامعقول واللامعنى كلمات تعبر عن اصطلاح واحد ، وان هذا الاصطلاح يشمل الشكل والمضمون معا ، ولا يجوز ان تفصل احدهما عن الاخر ولا اصبح النتاج شيئا اخر وقد ناز الير كامو على مضمون « المعقولة العلمية في الفن » ورغم انه زعيم العبثيين وباعت اسطورة - سيزيف من مرقدها بين طيات العصور الخوالي ، لم يعتبر مسرحه مسرحا عبثيا . لان المسرح العبثي ليس مضمونا عبثيا فحسب ، انه الشكل والمضمون معا او كما يقول رشاد رشدي « لكي تكون الصورة واضحة ومطابقة للحقيقة يجب ان تكون طريقة عرضها ايضا مطابقة للحقيقة .. وهي الحقيقة الفنية التي لا يمكن ان تقيد بمعنى واحد .. حقيقة التجربة نفسها كما عرفها الخيال لا حصاد التجربة بعد ان منقطعها العقل « فاذا جاء توفيق الحكيم » اليوم وفصل الشكل عن المضمون ، واختار الشكل اللامعقولي - كما يدعى - دون المضمون فلا ينبغي ان نسمي مسرحه لامعقولا ، بل ونخدع انفسنا والجماهير معنا اذا حشرنا مسرحه في زمرة المسارح اللامعقولة التي اشعلتها ثورة عاتية على المعقولة العلمية في الفن شكلا وموضوعا .

ثم ماذا في « الطعام لكل فم » ؟ . . .

المرحبة تصور اسرة عادية تحيا حياة تافهة لا تراء فيها ، الزوج يعمل رئيسا لقسم المحفوظات باحدى الوزارات ، مجرد « مفتاح صفيح » لخزانة الوزارة ، يقضي اول نهاره بين ملفات لا يعرف ما بداخلها ، واخر نهاره وشطرا من ليله بين ثلة من الاصدقاء يلعبون النرد في مقهى ، اهم خبر يشغلهم في العالم المتطاحن باسرة ، هو نتيجة « العشرة طاولة » التي يلعبها صديقهم ابو عفان مع صديقهم ابو درش ، اما الزوجة فقد تبدلت وعلاها الصدا حتى انها لم تفتح غطاء البيان منذ زواجهما اي منذ قرابة ربع قرن . ويثور الزوج لنسج على الحائط سببه مسح الجسارة القاطنة بالدور العلوي لشقتها ، وفي انتظار فدح القهوة يجلس في الصالون متأملا النشع ، واذا بالنشع يتحول بقدرة قادر الى اسرة كاملة مكونة من ام واخت تعزف على البيان واخ عالم يحاول تحقيق حلم « الطعام لكل فم » باكتشاف علمي توصل اليه بالاشتراك مع زميل اوروبي ، وتزول دهشة المفاجأة الاولى لدى الزوجين ، ويقضيان الليالي الطويلة قابضين امام النشع مستمتعين بالمناقشات القيمة التي تدور بين افراد الاسرة الجديدة المعلقة على الحائط .

فنحن هنا امام اسرتين ، حقيقة وخيال .. واقع ومثال . امسا الواقع فعادي ونافه ، واما المثال فخصب معطاء . وقد نستطيع ان نقول ان المؤلف قد استثنى عن « اللحم » « بالنشع على الحائط » ما يعرفه من مسالة الاحلام التي يراها الناظم في نومه وهو مستلق على اريكة مثلا ، وتظل القصة او المسرحية تدور حوادثها في الاحلام حتى اذا قاربت النهاية استيقظ الحالم من نومه او غفوته بعد ان نال درسا قاسيا ، او استفاد بتجربة واعية ، ما يعرفه المؤلف من ان هذه الحيلة ونظاؤها قد اصبحت من العمق بحيث لم تعد تقنع القارئ المعاصر او تشبع نهمه الى سبر اغوار الواقع ، حتى اهلنا عليها التراب وحفظناها في متحف التاريخ الادبي ، ما كان المؤلف على دراية ووعي بكل هذا ، استعان « بالنشع على الحائط » كوسيلة جديدة ، وحيلة طريفة ، اي انه لم يقم بأكثر من

وضع « تلفزيون » داخل المسرح ، تلفزيون يعرض مشاكل اسرة مفكسة داخل بيت عادي ، او راديو من داخل راديو ، ولا نشعر ابدا انها عفاربت دخلت من الحائط هذا العالم غير المرئي الذي يحير توفيق الحكيم ، لا نصدق ذلك لان للعفاربت حرية الانتقال داخل البيت والوقوف على رؤوس اصحابه ، اما الاسرة التي اسفر عنها النشع فكانت محددة الحركة والمكان بالحيز الذي تشغله بقعة النشع ذاتها ، اي ان الفاصل بين الحقيقة والخيال ما زال قائما لم يندب ولم يهتز . فلكل مكانه الذي يدل عليه ، الواقع المعاش يتحرك على خشبة المسرح والخيال معلق على الحائط ، تماما كما حدث بالنسبة لتجربة تداخل الزمان في مسرحية « اهل الكهف » فالزمان لم يتداخل في هذه المسرحية بالمعنى المفهوم الا ان كان لكل زمان حدوده - وعلاماته ، فاهل الكهف يمثلون الزمان القديم حتى بعد ان دخلوا وسط الناس لم يتوبوا فيهم .. لم تلمس سيامهم التي على وجوههم .

ولكننا نظلم توفيق الحكيم ، اذا قلنا انه اراد تصوير عالين منفصلين لا يلتقيان ، واقع ومثال . والا لاختار الطريق المطروق بتصوير شخصيتين او اكثر من لحم ودم . شخصية عادية واخرى مثالية مديرا الصراع بينهما ليؤثر احدهما في الاخر ، او ينفر احدهما من الاخر كما حدث لابسن في مسرحيته الشعرية « براند » (1875) فبراند رجل دين مثالي يعيش وسط قوم يمثلون البشرية بكل ما فيها من ضعف وانانية وانغماس في الملذات ، براند بتطرفه المثالي يتلقى الضربات بعزيمة وصبر وافراد كنيسته بواقفهم المر يلاحقونه بوابل من الحجارة وهو في طريقه الى كنيسته الجديدة باعلى الجبل حتى اذا ما وصل الى القمة اصابته الاحجار المنهزمة واودت بحياته .

توفيق الحكيم لم يقصد تصوير عالين منفصلين يتصارعان ولا يلتقيان ، واقع ... ومثال . وانما صور عالما واحدا بواقعه ... وغيبياته « وبين الحقيقة والخيال قطرة ... وربما لا يوجد شيء بينهما على الاطلاق ... والانتقال بينهما عادي جدا ... وربما كانا شيئا واحدا ... » كما تقول الزوجة في المسرحية . والتبرير الصحيح لما نراه امامنا على الحائط نجده في بسائط علم النفس ، بقعة من البقع .. بقعة حجر مثلا ، سقطت عفوا ، او القيت باهمال على قطعة من الورق ، لا بد ان كلا منا سيرها من زاوية معينة ، وسيجد فيها اشكالا غريبة تختلف عما يراه الاخر حسب ما يدور في نفسه وفكره ، كنا على شاطئ البحر ، وكانت السماء مثقلة بالغيوم ، ووسط سحبها الرمادية القاتمة ، سحابة بيضاء ناصع بياضها ، استرعت انتباه الجالسين وظلنا نتأملها فترة ، ثم قال احدها انها فارس منقذ على جواد اشهب ، يقتل ثعبانا كبيرا ، تماما كمصورة القديس « ماري » جرجس التي نراها على الجدران ، اما الثاني فراها قردة تضحك وتلعب فوق اكتاف مهرج بانس في سيرك متواضع ، وراها الثالث انسانا حجريا يطارد صيدا بين الاحراش الكثيفة المظلمة . وكذلك كون « النشع على الحائط » اسرة مثقفة تناول الموضوعات الهامة بالمناقشات المثمرة . ولكن ... كيف يحدث ان يجتمع اثنان في رؤيا واحدة بكسل تفاصيلها ودقائقها ??? ومن صاحب هذه الافكار ؟ ومن الذي ادار دفعة المناقشات الراقية على لسان « اسرة الحائط » ؟؟ .. وعهدنا بسيرة وحلمي التفاهة والسطحية ... او كما قال حمدي لزوجه عند اختفاء الاسرة الجديدة بتساقط « البياض » نفي لفكرة خلقهما لهذه الاسرة « رؤوسنا ؟ .. وهل رؤوسنا كان فيها شيء ؟ .. في ذلك الوقت ؟ انهم كانوا ارقى منا ... انكرين ؟ .. انت التي قلت ذلك يومئذ ... فيما اذكر ... » والحقيقة ان الرؤوس لم تكن خالية ، وانها فعلا من صنع رأسيهما ، اما سبب هذه الصناعة الجيدة والمناقشات الفكرية التي تملو على مستواهما كما يعتقدان ، السبب اسرة تالفة لم يشأ لها الحكيم ان تظهر على خشبة المسرح وكان لها فضل تحريك الكوامسن ، وادارة الاحداث ، اسرة اخت الزوجة وزوجها المحاسب الشاب ، كان حمدي في نظر هذه الاسرة الثالثة مجرد مفتاح صفيح لصندوق الوزارة لا يعرف ما بداخل الصندوق ، اما المحاسب فرغم انه في مقتبل العمر ، ولم يصل الى مركز رئاسي بعد ، الا انه على الاقل يعرف ما في ملفاته ،

يبحث موضوعاتها ويناقشها مع نفسه واقرانه ورؤسائه . وكانت سميرة تنقل هذه الآراء لزوجها وتحته على العلو بنفسه والسمو بافكاره ، على ان يترك المقهى وينظر الى الحياة نظرة جادة . وعلى اثر مناقشة من هذه المناقشات بين الزوجين واخرى بين الزوج والجاراة التي تقطن الدور العلوي انتصر فيها الزوج وارهب الجاراة واثار اعجاب زوجته ، على انسر هاتين المناقشتين جلس يتأمل ((التشع على الحائط)) فكان ما رأى وكان ان اشرك زوجته في الرؤيا فصدفتها .

من هذا نرى ان المحرك الاول لهذه الرؤيا هو الفرة .. الفرة من الاسرة الثالثة التي كانت تعريهما وتكشف عن سواتهما ، وما في حياتهما من تهاة وسخف وليس بغير على امرأة وثابة كانت تعشق الفن وتجد العزف على البيان قبل زواجها ان تستجيب لهذا الدافع حتى تصل الى مستوى اختها او الى خير منه ، وكذلك الزوج .. فان كانت الوظيفة والظروف المحيطة بها قد طوفاه بالتفاه والسطحية ، فانه رغم هذا يتمتع بشخصية قوية بناءة تؤثر في محدثيها ، وتدل على ((خلفية)) ليست هينة او على الاقل ليست تافهة كما هو في الظاهر . التفاهة والسطحية هما الصدا الذي يعلو معدنها النفيس مع تراكم الايام الرتيبة وانعدام الهدف ، فاذا ما استطاعا ان يجلوا هذا الصدا ادهشنا المعدن النفيس ببريقه وقيمته . ثم ن المسألة التي خضنا غمارها لم تكن بعيدة عنهما ... انها مشكلة كل بيت ... وكل يوم .. انها لقمة العيش ، المشكلة التي تحير العالم وتستعصي على حل معقول . ان بإمكانهما ان يشرآ اهتمامات العالم بأسره اذا توصلا الى توصيل الطعام لكل بيت ... لكل فم ، اذا اصبح كيلو اللحم بنصف مليم او بالجآن وقس على ذلك جميع المأكولات ، فالخبز هو المشكلة التي تههم الجميع ، الخبز هو المشكلة التي تههم الجالسين على المقاهي يتسامرون ، والقائمين امام الآلة يتكوون بنارها ، والراقدين في خيام اللاجئيين يثنون ويلوون من غصة الجوع ، الجوع هو المشكلة التي تحير الذين يكتزون الذهب والفضة ، والذين يربطون الحجارة على بطونهم .

عندما توصلا الى هذه الفكرة لم تعد تههما اسرة الحائط التي اختفت . وهل هي حقيقة ام خيال ؟ ... لم يحيرهما ((الشبح)) كما حير ((هاملت)) فلا يوجد فاصل واضح بين الحقيقة والخيال .. ربما

صدر حديثا :

سَاطِنَةُ الظَّلَامِ فِي مَسْقَطِ وَعُمَانِ

بقلم

عوني مصطفى

دار الاداب

الثلث ١٥٠ ق. ل.

كانا هما ايضا مجرد خيال ؟؟؟ ... من يدري ؟؟ كل ذلك لا يهم .. المهم هو العمل .. العمل الثمر البناء ... - اذا كانت نادية وامها وطارق مجرد خيال ... فلماذا لا نكون نحن ايضا كذلك ؟ - ماذا تقولين ؟ - لماذا لا نكون نحن ايضا مثلهم ؟ - فليكن ... المهم هي الحياة ... الحياة المثمرة ... الحياة في كل صورها ...

وتفديس العمل ... نجده في اعمال كثيرة لتوفيق الحكيم ، اهمها رائفته ((رحلة الى الغد)) فحتي الخلود بلا عمل امر تافه ... كسل وخمول خير منه الموت ((يجب ان نعمل ... لا يمكن ان نقضي هذا الخلود دون عمل شيء ...)) والحرية ذاتها بالدماء التي اريقنت فسي سبيلها ، بالامال العراض المعلقة على نوالها ، بتاريخها الاسبارتاكسي الطويل تكمن في الاحتياج ثم العمل ((الحرية ان نحتاج ونعمل ، ونحدث شيئا ، ونتجج جديدا ... هي ان نصنع حاضرا ومستقبلا ... هي ان نؤثر في الغير وفي الحياة التي حولنا ...)) العقل يختل اذا لم يعمل ، اذا وقف فقد انتهينا ((... انتهى الانسان فينا ...)) ودخلنا في مدار الاشياء ، لا في عداد الاشخاص ...)) وتحمل هذه الفقرة تأكيدا اعمق لتفاهة الحياة دون العمل الفكري ... دون الفكر ... صلب الحياة وعصبها .

وفي ((رحلة الى الغد)) نجد اكثر من ذلك ، نجد عمدا كثيرة قامت عليها ((الطعام لكل فم)) ومنها تجربته الاولى مع تعليق الافكار على ((الحائط)) . بل ان الافكار هنا تقف في الفضاء على شكل صورة ، لا يعترضها حائط ، تقف وتسير وتتكلم وتعمل ما على المرء الا ان يتذكر حادثة حتى يراها نصب عينيه ، هناك في ركن من الفضاء ، واضحة جلية ان وعت ذاكرته كل دقائقها ، مطموسة الملامح مبتورة ان لم تقو الذاكرة على حفظ التفاصيل ، صور الخيلة تنتقل الى الخارج اذن ، كما لو كانت ترسل بالراديو من وراء البحار ، اذا تذكر الشخص زوجته فستمثل امامه وسراها غيره ايضا في الفضاء القريب ، جميلة ، انيقة، وادعة ، تجلس على مقعدها المعتاد بجوار الراديو وفي يدها ابسة ((التريكو)) تخاطب زوجها : ((ما احلى هذه اللحظات .. وانت الى جانبي ... يا زوجي العزيز)) فاذا ما انتقل الشخص الى موضوع اخر اخفت الصورة ، وحل محلها خاطر جديد .

لم تثر هذه الطريقة حولها مناقشات ادبية ، او مناقشات نقدية ، لان ((الفصل الثالث)) الذي نحن بصده من الرحلة الى الغد ، يصور الحياة على كوكب اخر ، كوكب مشحون بالكهرباء ، وله في هذا المجال ان يتصور ما شاءت له الصورة او ما شاء لها ، دون ضابط او زاجر الا الموضوع نفسه كما تخيله المؤلف واحس به . اما ((الطعام لكل فم)) فانها تحدث هنا ... على ارضنا ... وهنا يرفع القلم سنانه للمناقشة والتحليل .

ولكن ... لماذا تساقط البياض على الارض ، رمزا لاختفاء اشخاص الحائط ، لزوال الحياة ؟ ثم لماذا اصر الحكيم على احضار ميكروسكوب ووضع القشور المهشمة تحت عدساته المكبرة ، ليرى انها مجرد قشور ، مجرد ذرات من تراب متماسكة الان تذررها الرياح بعد ان ؟ ماذا يعني هذا الرمز ؟؟ ..

هل يعني ان الحياة مجرد قشور هشمة هزيلة ، مجرد ذرات تراب واهنة هاوية . يؤيد الاديب عدلي خميس هذا الرأي - فسي مناقشة دارت بيننا - ولكننا نرى ان مادة الحياة فقط هي القشور الهشة . الجسم هو ذرات التراب المتطاير ، اما الفكرة فباقية خالدة . تنتقل من رأس الى رأس ، ومن بلد الى بلد ، تعبر البحار وتمتطي سهوة الاثير ، ولا تعرف الفناء . بل تنمو وتتطور وتثرى الحياة . وعلى هذا لم تمت الفكرة بتساقط القشور ، بل ظلت حية فسي رأس الزوجين وستنتقل حتما من رأسيهما الى رؤوس اخرى كثيرة ، وبيوت اخرى كبيرة ، اكبر واشمل من عش ائنين وابقى واخلد من رأس زوجين .

اما لماذا اطل المؤلف البحث عن طريق لاعادة الصورة الى الحائط بعد نساقت القشور ، لماذا اصنى الزوجين في محاولات شتسى باءت كلها بالفشل ، حتى افلت الفصل الثالث والاخير من يده ، وطل بمقدار النصف اكثر مما يجب . فهذا ما لا نجد له تبريرا .

ان كان لتأكيد ثبوت الصورة في الخيلة ، ورسوخ الفكرة في العقول ، دون الجدار او القشور ، فالاجدى - من الناحية الفنية - الانعرض كل هذه المحاولات على خشبة المسرح ... يكفي ان نحاط علما بحدوثها دون مشاهدتها ، درأ للملل ، وحدا للاطالة في موضوع لا يطور الفكرة او يخدمها . يكفي ان نشعر انها تمت فعلا كما حدث بالنسبة لاغراق الشقة العليا بالياه عدة مرات ...

اما الفكرة الاساسية التي قامت عليها المسرحية فهي البحث عن طريق لالغاء الجوع ونجد هذه الفكرة ايضا في « رحلة الى الغد » بل ونفاجأ بنفس التهيئات ، ونفس العقبات التي تترضنا عند التنفيذ ، ففي الفصل الرابع والاخير من « رحلة الى الغد » نرى صورة للارض بعد قرنين من الزمان ... صورة للعالم المتعشش للامن والسلام والخير .. وفي هذا العالم المستقبلي يستخرج الناس الطعام بكيمياء غير محدودة بالطرق الكيماوية :

الفاء الجوع !!! ...

كادت تلك الاكتشافات في اول الامر تعرض العالم لحرب جديدة ... فالدولة التي اكتشفت اولا ارادت الاحتكار ... ولكن سر الاكتشاف لم يلبث ان تسرب وعرفته كل الدول ... واستطاعت كل ام الارض ان تنتج الطعام بغير تكاليف ... وبهذا عم السلام ...

كل شخص يجد القهوة واللبن في الانابيب ...

نعم ... وما وجه الغرابة في ذلك .

هذه محاورة من المحاورات التي دارت بين فتاة مسن فتيات المستقبل ، وبين رجل من رجالات الحاضر ، عاد الى الارض بعد قرنين من الزمان ، او سيعود اليها - بتخيير اصح - .

وبلاحظ هنا بعض أوجه الشبه « باهل الكهف » . اهل الكهف يخرجون من اغوار الماضي الى حاضر زمان ما ، ورجل الغد يصعد من الحاضر الى امام القرون ... رحلات زمنية متكاملة ، يتقهقر فيها الماضي ويعود الى كهفه ... الى سجلات التاريخ ويسعد بها الحاضر ، ويصعد الى المستقبل متمنيا ما رآه حاضرا ... متمنيا ان يرى المواد الغذائية الضرورية تستخرج من البحار والمحيطات والرمال والهواء ، لا تدفع من اجلها نقود ... بل وتلقى النقود بالضرورة .

هذه الفكرة التي احتوتها الرحلة الى الغد ، ضمن ما احتوته من افكار ، وعرضته من عوالم ، هي الفكرة الرئيسية التي قامت عليها « الطعام لكل فم » والخوف من احتكار الدولة للاكتشاف يورق المؤلف هنا ايضا الى ان يجد حلا مقبولا باقامة مشروعه على فرض .. هو في حد ذاته خيال ... حلم وامل ، على فرض ان العالم وحده سياسة واحدة وكل كامل لا يتجرأ ، على فرض الفناء الحدود السياسية والحواجز الجمرية ، على فرض عالم جديد بلا اطعام ، وبلا حروب ، وبلا عقد نفسية تتحكم في سانسنته وسدنته .

ولا يخفي على المؤلف ما للجوع من اهمية تاريخية عملية بالنسبة للطفة ، فالجوع هو سلاح السيطرة والاستعباد ، هو المدفع الذي يقوض به المستعمر دائما حضارات قديمة وقيما قوية . ولن يتخلى المستبدون عن سلاحهم « ولهذا بالذات يجب ايقاظ الشعوب ... لتتجه بكل خيالها وشوقها الى ذلك الهدف البعيد : الرحلة الى الطعام العام .. » والمؤلف لا يقدم لنا هذا المشروع الخيالي المبني على اسس علمية ، انه يدعو اليه فقط ، يدعو الى الايمان ولو في الخيال بامكان الفناء الجوع ، فالمسرحية دعوة صادقة للكتاب والمؤلفين لبث الفكرة في الشعور الاجماعي . فلقد كانت الرحلة الى الكواكب البعيدة ... بعيدة . ولكن الرحلة تحققت في الخيال اولا ، بدأت بالحلم في الطيران عند اليونان والعرب ، في ان يكون للانسان جناحا نسر يحلق بهما في الفضاء ، كما اصبح له قدرة حوت يشق بها عباب البحار ومناحتها . بدأت بالحلم

في الصواريخ وسفن الفضاء واطباقه الطائرة ، ووجدت البشرية من يحلم لها ، فكانت القصص الرائمة التي كتبها ويلز وجول فيرن وزيسو لكوفسكي عن الصواريخ وسفن الفضاء ، فاذا ما تم غمر الدنيا بالاحلام كان من السهل الانتقال الى الواقع ... اذا ما حلم الناس بالغاء الجوع بالقوة التي حلموا بها للوصول الى القمر ، بنفس القوة والاصرار والعزم ، فلا بد ان يستجيب العلم ، ويصبح الحلم حقيقة واقعة ملموسة في يوم ما ... مهما كان بعيدا ، فلن يبعد بعد الجوزاء ، ومهما كان شاقا فلن يشق على النفوس الامله الطامحة .

سؤال اخر ... لا يبدأ بكيف ، فقد عرفنا كيفية الوصول ، بسل بالحرف المحير ... لماذا؟؟؟ ...

لماذا فكر الناس في الصواريخ ولم يحلموا بالفناء الجوع؟؟ . « اترى الانسانية كالطفل الذي يفكر في لعبته قبل لقمته ؟ ... »

لا ... بل لان الذين يفكرون للانسانية - هكذا يقول الحكيم - ويحلمون لها ، لم يجوعوا ... ولم يشعروا بجوع الاخرين .

واذا كان للحكيم فضل هذه الدعوة ... فاننا الان ، في انتظار كاتب اخر ... رجل كجول فيرن او ويلز ، ليمهد لنا الطريق ، يحلم لنا احلاما سعيدة ، يحملنا معه في سبحات الففوات الى عوالم بعيدة

... لنصنع الجنة بأيدينا لنخلق جنة حقيقية ، دون انتظار لها في عالم اخر ، نصنعها هنا ... على ارضنا بسواعدنا وعزمنا ، نحيل الانهار الى عسل وخمر ، والنبات اللاتي يلطخن طين الحقول وعلوم المصانع الى حور عين ، امهاتنا وبناتنا هن الحور العين بحسب المسال والاصال ...

موضوع اخر .. فكرة زجت بنفسها في المسرحية ، وعرضها الحكيم في حوارها على الحائط ، مضمونها انه يجب على الفنان او العالم الا يشغل ذهنه الا بفنه وعلمه ... عليه ان يخلف وراءه كل مشاكل الحياة ، لان القيم تتغير .. والاخلاق تتطور ... فاذا ما قتل ام الفنان اياه لتتزوج بعشيقتها ، فليس له ان يثور لدم ابيه ، او يفكر في الانتقام ويترك العلم والفن الذي بهما يحيى الانسان ... تسعسد البشرية .

ان هاملت واليكترا واورست ، كانوا يعيشون في زمن مضى ... في عالم فارغ بعقلية طفله ... وكان عليهم ان يشغلوا هذا الفراغ ، في حدود اهتماماتهم الساذجة شغلوه بالتفكير في الانتقام ، بالمؤامرات والمناورات ... والا لما وجدوا ما يعملونه ، ولما توا بطالة وملالا ...

اما اليوم ... فالعالم اكثر تعقيدا ... وادعى للعمل الجاد المثمر من هذه الافكار السقيمة ...

فكرة جديدة ... لم نعها بعد ... ونامل ان نجد تفسيرها لها في عمل اخر من اعمال الحكيم الحكيمه ... كعادته .

محمد محمود عبد الرزاق

حسوان

فندق نيوبالاس
إدارة: فتحى نوفل

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

ت : ٤٥٩٣٦
س : ٧٩٧٩١



وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبر سابقا) القاهرة
تلفون: ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo